قبريات العجم

كان الاقدمون ينقشون على نواويسهم صور مواكب الجنازة والمعارك والانتصارات والصيد ونحو ذلك من الرموز التي كان لها في خرافاتهم ومعتقداتهم شأن كبير. وكثيراً ما كانت القبور تفتح ضمناً بما فيها من الحلي ونحوها حتى كثرت الاشارة في القبريات الى عدم فتح القبور والتهديد والوعيد لمن يقدم على فتحها

وكان الرومان ينقشون على قبور الاغنياء والعظماء القابهم وبعض اعمالهم وعلى قبور الفقراء آيات حكمية فقط. ومثل ذلك كان يفعل اليونان وغيرهم

وكان بعض ملوك الفرس يحفرون قبورهم في جانب جبل او صخرة عالية وينقرون على مقدمها ما يشاكل مقدَّم هيكل لهُ ثلاث طبقات والقبر في الطبقة الثانية ويتوصل اليهِ بدرج ويغلب على الظن ان التابوت يكون من ذهب فلذلك كانت قبورهم تنهب حينما يدوخ العدو بلادهم فاعتنوا بالاضرحة والقبور كثيراً. ومن اعظمها ما شيدهُ كورش ملكهم وهو بناء مرتفع على عروشٍ من رخام ابيض حجارتهُ كبيرة جداً وطول مقصورة التابوت فيهِ نحو ١١ قدماً وعرضها سبع اقدام ولها باب واحد لا منفذ فيها سواهُ وهناك وضعت جثة في تابوتها الذهبي وكتب على الضريح ما ترجمتهُ " انا كورش الملك العظيم الاكيمي " وكان حول الضريح اعمدة ونحوها

اما قبور المسيحيين فيغلب ان ينقش عليها الفاظ الرحمة مثل قولهم (رقد في الرب) (ولتستريح نفسك بسلام) مع اسم الميت وتاريخ وفاته

وهاك امثلة القبريات عندهم على اختلافها :

من اقدم القبريات ما حفر على تاووس من المرمر اكتشف في صيداء في اوائل سنة ١٨٨٧ م [1] باللغة الفينيقية وهذا تعريب ما هو محفور عليهِ " انا تبنت كاهن عشترت ملكة الصيدونيين ابن اشمنعزر كاهن عشترت ملكة الصيدونيين الراقد في هذا الضريح انبه لن يريد ان يفتحهُ ان ليس فيهِ ذهب ولا فضة ولا حجارة كريمة واحذرهُ انهُ اذا تجاسر وفتحهُ ستزدهُ واقلق راحتي لا يكون لهُ توفيق تحت الشمس ولا يكون لهُ راحة في قبرهِ "

ومنها ما وُجد على قبر وزير للملك العائلة السادسة والعشرين المصرية باخط الهيروغليفي معرَّبهُ " ان الرجل اطعم الفقير وآوى البائس وساعد المسكين ولم يأثم في حياتهِ شرًّا وكان يرجو وهو حيّ نيل الراحة الابدية بعد الموت "

(١) نقل هذا التاووس وغيرهُ من الآثار الى متحف الاستانة العلية في السنة نفسها

ومنها ما كتب على ضريح هوميروس بطل الشعراء وقد عربتهُ بتصرف قليل

تغطي رأس هومير المقدَّس زهورٌ تجتنيها اليوم يومس
بدا مثل الاله بمعجزات بها نطق الورى والدهر أخرس

ونُقش على قبر اليونيداس الذي قتل في معركة ترموبلي بين الفرس واليونان في القرن الخامس قبل الميلاد ما معرَّبهُ " ايها المارّ في الطريق سر الى اسبرطة وأنبئ سكانها اننا متنا هنا مطيعين لشرائعها "

ونصب الاثينيون لديمستين شيخ الخطباء تمثالاً من الشبهان (البرونز) حفروا على قاعدته ما تعريبهُ : " لو كانت سطوتك يا ديمستين مضارعة لقوة جنانك وفصاحتك لما استطاع مرتيخ المكدونيين ان يستظهر على اليونان قطّ " سنة ٣٢٢ ق م

ولما احتضر ارخيدس الفيلسوف الرياضي (سنة ٢١٢ ق م) اوصى اصدقاءهُ ان ينقشوا على قبره اسطوانة مرسومة ضمن دائرة مع الاعداد تظهر نسبة احدهما الى الآخر

واوصى سيبيون الافريقي قبل موته في منفاهُ (١٨٣ ق م) ان يكتب على ضريحه هذه الكلمات " يا ايها الوطن الناكر الجميل انك لا تضم عظامي "

واوصى سلاًّ احد حكام الجمهورية الرومانية قبل وفاته (سنة ٧٨ ق م) أن يكتب على ضريحه ما يدلُّ على سجيته وهو " لم يحسن الي احدٌ لأوفيه ولم يظلمني احدٌ لأعاتبهُ "

ولما قتل جبيوس القائد الروماني الغوار (سنة ٤٨ ق م) وأُحرقت جثتهُ دفن رمادهُ في الشاطئ ونُصب عليه حجر كتب عليه بضعة " بيبوس الكبير "

ولما حضر الموت انوشروان العادل امر ان يكتب على تابوته " ما قدَّمناهُ من خير فعند من لا يخيّب الثواب وما كسبناهُ من شرّ فعند من لا يعجز عن العقاب "

ونظم شاعر لاتيني قديم قبرية لاولاد عرَّبتها بقولي :

ان هذي القبور ضمَّت جسوما ونحت من جمالهنَّ رسوما
فهي لولا الاهمال والنقر كانت كسراج ينير ليلاً بهيما
كم فقير في طيها كان بنشا لو اردنا ارتقاءهُ شهماً عظيما
بأكفٍّ لصولجان أعدَّت ورؤوس بالتاج تلقى نعيما
من صغير يضيق عنهُ فضاء حلَّ لحداً لحلَّ فيه رميما

وكُتب على قبر رافائيل المصوّر الايطالي الشهير كلمات باللاتينية ختمت ببيت من الشعر عرَّبتهُ : (توفي سنة ١٥٢٠ م)

ان الطبيعة سيئ الحياة تخافهُ والآن تخشى ان تموت بموته

ونظم الشاعر الفرنسوي مانرن رثيه قبريتهُ (توفي سنة ١٦١٣ م) فعرَّبتها نظمًا :

لقد عشتُ من دون اعتناء مجاريًا يبطئي نظامات الطبيعة خاملا
فأعجب من موتي اتاني مفكرًا بمن لم يفكر فيهِ كيف تنازلا

ونظم الشاعر فرنسيس بومونت المتوفى سنة ١٦١٦ ملخص ما كُتب على قبور مقبرة وستمنستر (١) وهذه المقطعة تعدُّ من الطبقة العالية في اللغة الانكليزية نظمتها معرَّبةً :

تأمل بالمصير وكن جزوعا فكم رمم هنا دفنت جميعا
وكم تحت الثرى عبد وضيعٌ يجاور آمنًا ملكًا رفيعا
مليكٌ ليس يطمع في فتوحٍ وصار بوحشة المنفى قنوعا
أطاعتهُ الرعايا صاغراتٍ فصار لأصغر الاشيا مطيعا
ينادي منذرًا من حلَّ قبرٍ ولا يلقى لما يُلقى سميعا
يقول "دعوا انكالكم جميعًا على مجدٍ خبتناهُ سنيعا"
فهذي الارض قد زرعت ملوكًا وامسى روضها منهم مريعا (٢)
تقول عظامهم للناس "ذقنا بكاسات الردى السم النقيعا"
تحوَّل جسمهم حالاً هباءً وقد ملأ البسيطة والرقيعا
وعالمُ كل أبهةٍ وفخرٍ نراهُ مثلهم منهم صريعا

ونظم الشاعر الانكليزي الشهير شكسبير قبريتهُ قبل وفاتهِ سنة ١٦١٦ وهذا معرَّبها نقلاً عن دائرة المعارف العربية :

صاح بالله لا تشقّ حجابا عن ثرى من في ذا الضريح أقاما
يا رعى الله من رعى القبر لكن لعن الله من أثار العظاما

فامتنع الناس عند قراءتها عن نقل رفاتهِ من مقبرة سترتفورد الى مقبرة وستمنستر

ونظم بوالو الشاعر الفرنسوي الشهير لتمثال مداموازيل لاموانيون ما عرَّبتهُ نظمًا

أرى تمثال آنسةٍ تسامى فضاقت في مبادئها الاناما
وتقواها قد اشتهرت بذكرٍ لها في الخافقين بنى مقاما

---

(١) في مقبرة الشهير التي كان اسمها القديم Thorn Island حيث كانت كنيسة سكسونية قديمة هذه المقبرة أولاً باسم دعارون دير ورمها هنري الثالث وفيها من قبور العظماء قبور ثلاثة عشر ملكًا وخمس ملكات ثم قبور العلماء والشعراء والفلاسفة وغيرهم (٢) مخصبًا

وكانت نصرة الفقراء حتى أُذيقت في عنايتها الحماما

ونظم ايضاً قبرية والدته المتوفاة سنة ١٦٧٠ بنسانها ما عرَّبتهُ ايضاً :

انا زوج لمن تسامى اعتبارا وبحبر للخير نال وقارا
فاقتفينا على البساطة عمراً ما عرفنا غيبةً وانتهارا
فاترك البحث هل بقيَّ اقتدوا بي او اضاعوا هذي الصفات احتقارا
وانزل النظم محبباً بسفائي وتحذَّر ان تنقل الاشعارا

وكتبت الجمعية العلمية في فرنسا على تمثال موليير الذي اقامتهُ في محل اجتماعها (توفي سنة ١٦٧٣ وهو يشخص رواية المريض الوهمي وكانت الجمعية قد رفضت قبولهُ فيها لانهُ كان يحب الهزل) ما معناهُ : « ان عدم انتظامهِ في جمعيتنا لم ينقص شيئاً من مجدهِ ولكنهُ انقص كثيراً من مجدنا »

ووجد في رومية قبرية لاتينية عرَّبتها بقولي :

يانجد عاش وبالفضيلة قد يعيش واغا بالذكر سوف يعيشُ

ونظم لافونتين قبريتهُ سنة ١٧١١ م فعرَّبتها :

ذهبتُ كما أتيت بدون شيءٍ لعلي ان ذُخرَ المالِ فانِ
وانفقتُ الزمان بكل حرصٍ فبين النوم والكسل الاماني

وكتب على قبر ادسون في مقبرة وستمنستر (المتوفى سنة ١٧١٩) قصيدة طويلة لخصتها بقولي :

أديسنُ في هذا الضريح ينامُ وتذكارهُ بين الشعوب يقامُ
فضيلتهُ طارت ياجنةٍ الى نعيم بهِ طيبُ الخلود مرامُ
هنالك ترنيم الملائك دائمٌ يشاركهم فيهِ وليس يضامُ
محاكنا فيها السياسة انما محاكمهم فيها يسودُ نظامُ
فصبرٌ بناطرق عدلٍ وحكمةٍ توَدَّب بالاخلاص فيهِ كرامُ
بعلنا كيف الحياة وموتنا فطاب بهِ مبدا وطاب ختامُ

ونقش على تمثال الفيلسوف انجق نيوتن الشهير بالانيزية ما معناهُ :

« ليفتخر الاحياء ان نشأ في العالم انسان البس الناس ثوب مجدٍ لا يُظَن » ونقش على ضريحهِ في وستمنستر قاعدة تربيع الكيات الثنائية المشهورة في كتب الجبر وتوفي سنة ١٧٢٧

ونظم انكسيس بيرون الفرنسوي قبرية جان جاك روسو اختصر بها حياتهُ (توفي سنة ١٧٤١ م) — « هذا ضريح الشهير والتعيس روسو فالبريان قبرهُ وباريس مهدهُ وتخصر

سيرتو انهُ عاش نحو ثلاثين سنة حُسد عليها والباقي مرثية يحالة يرثى لها»

ونظم بيرون قبرية أخرى بمعربها

يامن يمرُّ بقبري وهو يسألني عن الحياة وعمَّا كنتُ في القدمِ
هو الجنون اذا ما كنت منهمكاً فانت من عدمٍ تمضي الى عدمِ

ونظم روبرت برنس المتوف سنة ١٧٩٦ قبريةً لصديق لهُ من الشعراء محصلها نثراً

ليستوقف القاري لدى القبر شاعرٌ ذكيٌّ حكيمٌ للاخاء نصيرُ
ولكنما فيهِ الرعونة اثَّرت فهما ارتقى بالمجد فهو حقيرُ
ألا قف سوالاً كنت في سرح المنى تفكرُ ام في الارض حيث قبورُ
فهل غير ضيق النفس او كسب حكمةٍ ومعرفةٍ للمكرمات جذورُ

ونظم الشاعر الفرنسوي الشهير فكتور هوغو قبرية لولد صغير دفن قرب البحر سنة ١٨٤٠ فعرَّبها بتصرف قليل :

انتَ يا عشب الحقول الناضرهْ وزهور الروض في تلك السفوحْ
وذبابٌ طنَّ بعد الهاجرهْ حاديَ الراعي الى حيث يروحْ
انتَ يا موج الخضمّ المنشدِ بلسان الريح أعلى النغماتْ
انتِ يا اشجار غاب اسودٍ ثرثرت حزناً عليهِ الثمراتْ
ورجوماً من اعالي الجلدِ قد ترامت فوقنا مخدراتْ
وطيوراً في غصونٍ زاهرهْ قد شفت انغامها منا الجروحْ
وسهولاً فوق ماءٍ ناشرهْ نسماتٍ عرفها الذاكي يفوحْ
وجداولاً زهرهُ النرُّ المصونْ او شهابٌ قد تجلَّى في سماهْ
وحقولاً مذ بكت فيها العيونْ بسم السنبلُ غضّاً سيفَ بهاهْ
اظهري الآن خشوعاً وسكونْ لصغير حلَّ قبراً في صباهْ
اهرمي عن حركاتٍ ثائرهْ قد اثارت في حشا الأمِّ القروحْ
واتركي الميت قرير الباصرهْ ودعي الأمَّ على الثكل تنوحْ

ونظم الشاعر تنسون الانكليزي قبريةَ السرجون فرنكلين الرحالة الشهير الذي مات في القطب الشمالي واقيم لهُ ضريح في مقبرة وستمنستر سنة ١٨٤٧ ما معرَّبهُ :

عظامك لم تضمّ الى ضريحٍ ولكن ضمها القطب الشمالي
ونفسك لم ترُدّ في الارض قطّاً لتكتفهُ ولكن في الاعالي

ونظم الشاعر توماس مور المتوفى سنة ١٨٥١ قبريّة لبعض ابطال عصره . عرّبتها بخمسة :

بعيشك لا تهمل مدافن شجعان ... لهم عزمات أضرمت مثل نيران
فليتهمُ عادوا اتحاداً كما مضوا ... لكبح جماح الجور عن مجد اوطان
فانّ ضريحاً ضمّ ميتاً تحامياً ... عن الوطن المحبوب في ظلّ سلطان
أجلُّ من القصر الذي فيهِ جحفلٌ ... يريدون كسب النصر بلاً لنيشان

ونظم هذا الشاعر ايضاً قبريّة لاحد المنيين عرّبتها ايضاً :

لجا المنيُّ من حرّ الهواجر ... الى بَرْد الظلال وكان صابر
فحاذر ان تسميهُ نداه ... فتوقظهُ وكان النعر ساهر
غيوث دموعنا تجري عليهِ ... كأنداء على عشب المقابر
تعاهدهُ الندى في الليل ويلاً ... ليحفظ فوق مدفنهِ الازاهر
كذلك دمعنا المسفوح سرّاً ... ليحفظ ذكرهُ في النفس ناضر

ونظم الشاعر الفرنسوي الشهير لامارتين المتوفى سنة ١٨٦٩ قبريّة لولدٍ عرّبتها

كان هذا الوليدُ يحلو ابتساما ... لُبَّ لاهيا يسرُّ الأناما
فلماذا الطبيعة الآن جارت ... وأرادت بخطبها أن يُضاما
أفلست طيور روضك تكفي ... ونجوم السما تنير القتاما
وزهور الرياض ترسل عرفاً ... وزلال المياه يطفي أواما
فأخذتِ الوليد من حضن أمٍّ ... لضريح تحت الازاهر قاما
هل رأيتِ الوليد عباً بارض ... او اخذت الصغير يقفي المراما
لا ارالكِ البهيجة الآن قلباً ... مثل أمٍّ ولو طربتِ ابتساما
ان قلب الحنون مثلكِ رُحماً ... ملأتهُ الاكدار هماً فهاما

ونظم الشاعر الغزلي الفرد دي موسّه قبريتهُ (توفي سنة ١٨٨٠) ومعرّبها :

اغرسوا الصفصاف حول المقبره ... ذا اصفرارٍ وغصونٍ مزهره
إنني احببتُ ظلاً وارفاً ... منهُ فوق اللحد وهو الفخره

وكُتب على قبر جورج البوث القصصية الانكليزية المشهورة المتوفاة سنة ١٨٨٠ ابيات من قصيدة لها معناها " ايمكن ان التمتع بالاتحاد مع جوق المرتلين من اولئك الموتى الخالدين الذين يحيون ثانية في افكارهم فيكونون افضل مما كانوا في حياتهم "

ومنهم كارفي المحسن الاميركي الشهير ان يكتب على ضريحهِ ما عرَّبهُ بعضهم تحصلاً :

هنا رقد المرء الذي ضمَّ حولهُ رجالاً ذوي علمٍ هُمُ فيهِ اعرفُ
تعلَّم منهم جمع آثار جدِّهم وعلَّمهم كيف الدراهم تُصرفُ
افادوهُ سبقاً في ادوارهم واقادهم بان الذي يبقى من المال متلفُ

ومن اغرب القبريات ان اميركياً مولعاً بالموسيقى توفي سنة ١٩٠١ فاقامت لهُ زوجتهُ على ضريحهِ بناء ووضعت ضمنهُ فونغرافاً

وفي آخر السنة الماضية (١٩٠٥) اقام اصدقاؤه سينتون ومريدوهُ تمثالاً على ضريحهِ قاعدتهُ من الحبَّب وفوقهُ رسم الثائب المتوفى ونقشوا على قاعدتهِ اربعة ابيات من قلم المسيو بول ديرولِيد محصلها . " ان الذي يموت في سبيل وطنهِ ذكرهُ حيٌّ لا يموت "

(الخاتمة)

هذا الى غير ذلك مما جاء في الكتاب المقدس وسير القديسين وغيرها مما لا تسعهُ المجلدات الكبيرة . ولم اقف على مقالة في هذا الموضوع سوى شذرات قليلة باللغة الانكليزية في الاحتضارات اما القبريات فلم اقف على شيء منها ولكنني اطلعت في كتاب خزائن دمشق لحبيب افندي الزيات على اسم كتابين احدهما ذكرهُ في الصفحة ٣٣ وهو الجزء الثالث من الكتاب وهو الموسوم بالعدد (٥٦) وفيهِ وصايا العلماء عند حضور الموت تأليف ابي سليمان محمد بن عبد الله بن احمد الربعي والثاني في الصفحة ٨٥ العدد الثامن وهو (اخبار الاخيار بما وجد على القبور من الاشعار) جمع احمد بن خليل اللبودي الدمشقي الشافعي بخطهِ مرتب على الحروف وصل فيهِ الى حرف الهاء وفيهِ بياض كثير . وعسى ان نشر شيئاً منهما

وربما وجد غير هذا من الرسالات والكتب التي لم اطلع عليها ولا وقفت على اسمائها وقد فاتني كثير من الاحتضارات التي عثرت عليها بعد فوات محلها مثل قول بهاء الدين زهير وقد كتب بهِ الى محمد بن الحكيم عماد الدين الديريني وهو آخر نظمهِ :

ما قلت انت ولا سمعت انا هذا حديث لا يليق بنا
ان الكرام اذا صحبتهمُ ستروا القبيح واظهروا الحسنا

ومن ابلغ ذلك وصف ابي تمام لأخيهِ وقد حضر وفاتهُ وربما كان هذا من الاوصاف الوحيدة للمحتضر عند العرب اذ يصوِّر للسامع حالة الميت عند النزع كما ورد مثل ذلك لهوميروس في ما مرَّ :

اني افتن البلى لو كان يفهمهُ صدَّ البلى عن بقايا وجهِ الحسنِ
يا يومهُ لم تدع حسنًا ولا ادبًا الَّا حكمتَ بهِ للحد والكفنِ
لله مقلتهُ والموت يكسرها كأن أجفانهُ سكرى من الوسنِ
يردُّ انفاسهُ كرهًا وتعطفها يدُ المنيَّةِ عطف الريح للغصنِ
ياعزل ما ابصرت عيني وما سمعت اذني فلا ابصرت عيني ولا اذني
لم يبقَ من بدني جزءٌ علمتُ بهِ الَّا وقد حلَّهُ جزءٌ من الحزنِ
كان اللحاق بهِ اهنا واحسن بي من ان اعيش سقيم الروح والبدنِ

وفي الختام ارجو المعذرة عما فرط من الخطإ في النقل او الترجمة والعصمة لله وحدهُ وهو سبحانهُ وتعالى اعلم

عيسى اسكندر المعلوف

[المقتطف] كانت هذه الاختصارات والتعريبات اكثر مما نشر فحذفنا كثيرًا منها لضيق المقام او لاننا لم نرَ فائدة خاصَّة من نشرهِ

نفائس الدلَّالين

من قبل ان قال عنترة العبسي او قيل عن لسانهِ "حسامي كان دلال المنايا تخاض غمارها وشري وباعا" كان الدلَّالون يبيعون كل علق نفيس حتى لقد باعوا مرةً المملكة الرومانية بكمالها. عرضها الحرس الخاص للبيع سنة ١٩٣ للميلاد بعد ان قتلوا امبراطورهم برتيناكس فرسا مزادها على يوليانوس احد اغنياء رومية وكان سلبشيانوس حمو برتيناكس قد عرض ان يعطي كلاً منهم ما يساوي ١٦٠ جنيهًا بمعاملتنا وهم نحو عشرة آلاف رجل فجاء يوليانوس وعرض ان يعطي كلاً منهم ما يساوي مئتي جنيه بي انهُ اعطاهم مليونين من الجنيهات ثم المملكة الرومانية فنادوا بهِ امبراطورًا

ومتى كثر الذي تنافس الاغنياء في اقتناء التحف النادرة والاعلاق الثمينة. وقد لا يكون الشيء ثمينًا لذاتهِ ولا تكون منهُ منفعة ما ومع ذلك يغالي الاغنياء بثمنهِ لندرتهِ ولانهم يتوخون الامتياز بهِ على غيرهم. والظاهر ان الانكليز والاميركيين فاقوا الناس اجمع بالمغالاة بما هو نادر فاذا وقف دلَّال مشهور من دلاليهم وعرض شيئًا نادرًا او منقطع النظير تسابق اغنياؤهم الى ابتياعهِ وتزايدوا بالمئات والالوف كأن القحب صار تراثًا. فما يتنافسون فيهِ ويغالون بثمنهِ بيض الاوك وهو طائر انقرض منذ ستين سنة وعثروا على نحو سبعين بيضة